كتب

في كتابه الأخير، «وسط العوالم: تاريخ علمانيّ للشرق الأوسط منذ سنة 395 إلى يومنا هذا»، يسعى الباحث الفرنسي إلى نقض القراءات الكاريكاتورية لواقع المنطقة، من أجل مقاربته بمنطق العقل والتحليل، مفكّكاً، في الوقت نفسه، عدداً من التصوّرات المسبقة حولها

جان بيار فيليو خروجٌ من القراءات المتعجّلة

هل «الشرق الأوسط» مركز العالَم؟

نجم الدين خلف الله

ما تزال منطقة «الشرق الأوسط» تثير تساؤلاتٍ حارقة عن مُكوّناتها العرقيّة والطائفيّة واللغويّة التي تتنافس فيها، وعن الأسباب العميقة التي تُعلّل تواصل هذه الفُسيفساء التي تُعدّ تارةً مصدرَ ثراء وتنوّع، وتارة أخرى بؤرَة نزاعاتٍ تكاد لا تنتهي. وما تزال الكتب العِلميّة تصف هذه الضّدية الثنائية وتعمل على تفكيكها وتحليل مظاهرها العميقة، حفرًا في السحر الذي يمارسه هذا الشرق، سحرٍ ممزوجٍ بإخافة ورهبَةٍ لا تَعليلَ عقلانيّ لهما.

ومن آخر ما صدر في هذا المضمار، كتابُ للباحث الفرنسي جان بيار فيليو (1961) بعنوان «وسط العوالم» (منشورات «سوي»، باريس)، وهو، كسائر كُتبه السابقة، مُوجَّه إلى جُمهور عريض، لا إلى فئة المختصّين، بالاتّكاء على تقليدٍ ثريّ في اللغة الفرنسية انصبّ على الدراسة الجيوسياسيّة لهذه المنطقة، بَعضه يعود إلى الإرث الاستشراقي وبعضه إلى الدراسات القطاعيّة الحديثة التي تخصّصت في دراسة مسائل دقيقة في سيرورة المجتمعات العربيّة. صَدرَ الكتاب في أيلول/سبتمبر الماضي، حاملًا عنوانًا فرعيًا يثير الانتباه: «تاريخ علمانيٌّ للشرق الأوسط منذ سنة 395 إلى يومنا هذا». وتجدر الملاحظة أنّ هذا التأليفَ مُهدًى إلى الباحثة الفرنسيّة ذات الأصل الإيراني، فَريبا عادلخاه، التي تقضي مَحكوميتها في بيتها بطهران، وهي زميلةٌ للكاتب في «معهد الدراسات السياسيّة» بباريس.

وعليه، تكمن أصالة هذه المقاربة في الاعتماد على رؤية «علمانية» للتاريخ، تقطع مع التصوّر الديني للأحداث التأسيسيّة التي تَجعل من هذه المنطقة فضاءً مقدّسًا أسطوريًا، لا يمكن أن يُفهم بمنطق العقل ولا بآليات التحليل التاريخي التي تطوّرت ضمن المدارس التاريخية المعاصرة، كمدرسة «الحوليات» الشهيرة، وذلك بالتركيز مثلًا على كون الشرق مَهبط الرسائل السماويّة الثلاث، أو مَحجّ طالبي الحقائق وغيرها من الدعاوى التي تحول دون الفَهم الرصين للصراعات الآنية والماضية التي هزت تلك المنطقة وما تزال تهزّها، تغذّيها أيدولوجياتُ «الأرض المختارة» أو «الموعودة».

يَنقسم هذا الكتاب إلى عشرة فصول، خُصّص كل واحد منها لفترة من الفترات التي حَكمت تطور الأحداث خلالها، وقد اختار الباحث الفرنسيّ لقصّة كتابه أن تبتدئ سنة 395 بعد الميلاد، وهو تاريخ يُصادف ظهور الإمبراطورية الرومانيّة بالشرق، ممّا جعل منه، تبعًا لهذا الظهور، رُقعةً ترابيةً مُحدّدة، ازدهرت فيها الديانة المسيحية الناشئة وباتت تنظر تلقاءَ القسطنطينيّة وليس روما. وبالنظر إلى الخلفيّة التربوية الراسخة للباحث، فإنه اجتهد في دَعم كتابه هذا بسلسلة من الخرائط التوضيحية (عشرون في الجُملة) وعشرة جداول تاريخيّة تضمّ أهم الحوادث والانعطافات الكبرى، إلى جانب مُلحقَيْن بأسماء الأعلام والمفاهيم الرئيسة التي اعتمد عليها في إجراء تحليلاته. وجاءت الخلاصةُ أقرب ما تكون إلى التحليل الجيو - سياسي، حيث خصّصها لإبراز المكانة التي تحتلّها منطقة الشرق الأوسط في العالم المعاصر، وكذلك لتحليل الطموحات التي تسعى إلى تحقيقها هناك في ذات الوقت القُوى الإقليميّة والأجنبيّة، وكلّها تَتنازع السيادة على ذلكَ الجُزء السّاحر من العالَم، حيث يعتقد الباحث أنّ تاريخه جزءٌ لا يتجزّأ من تاريخ فرنسا. وما يجري في ساحته البعيدة تلك من شأنه أن يؤثّر في مُجريات الأحداث في أوروبا، ولعلّ ما عرفته سورية في السنوات الأخيرة أكبر آية على ذلك، حيث هاجر إليها أكثر من ألفي شاب فرنسيّ، ولعلّ بعضهم أحسّ بأنه مَعنيٌّ بما يحصل هناك أكثر ممّا يعنيه ما يدور حوله في باريس وضواحيها.

ويسْعى الكتاب إلى ضَرب فكرة تصادم الحضارات، التي طالما روّجت لها في الأدبيات الحديثة، مثل مؤلَّف صامويل هنتنغتون (1927 ـ 2008) «صدام الحضارات»، كما يُفنّد في الآن ذاته تعليلَ النزاعات بالتعارض الديني والطائفي، مثل التضاد الإسلامي - المسيحي أو السنّي - الشيعي، بالنظر إلى تعقّد مكونات هذا التعارض وتوزّعها بين المعطيات الرمزية ذات الطبيعة الدينية، والدنيوية المتجذّرة في السياقات السياسية - الاقتصادية المتغيّرة. وخلال فصول الكتاب، حاول تفكيك هذه التكتّلات عبر الوقوف على التواريخ والشخصيّات، وحتى المظاهر التي يُراد لها أن تكون رمزية، مع تقديم تفاصيل عديدة عن التنظيمات والتشكيلات السياسيّة للكيانات المتعاقبة في المنطقة.

ولهذا، عاد الكتاب إلى قُرابة ألف سنة من التاريخ القديم والحديث، حيث بدأت ملامح هذه المنطقة تتشكّل على ضوء الحروب الصليبية ثم الصراعات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة العبّاسية، قبل أن تَصل إلى مرحلة الحكم العثماني، حيث اعتُبرت مناطق الشرق الأوسط بمثابة ولاية تابعة للسلطنة، بكلّ رمزيتها الدينية (دولة الخلافة) وما خلقته هذه التبعيّة من توتّرات بسبب وجود ما بات يُعرف بالأقلّيات التي لا تَدين بولائها للخليفة، وأخيرًا مرحلة الانتداب الفرنسيّ، الذي هو في الحقيقة استعمارٌ، وهو ما أجّج سائر توتّرات المنطقة، ولا سيما بعد إنشاء الكيان الصهيوني سنة 1948 على أرض فلسطين، على إثر «وَعد بلفور».

ويؤكّد الكاتب أنّ توجّهه في هذا الكتاب توجّهٌ «عِلماني مُواطنيّ»، بمعنى أنه لا يمارس كتابة التاريخ بقصد الإيغال في الحيثيات المجرّدة التي لا تهمّ إلّا ذوي الاختصاص، ولا بغرَض التمجيد الذي يقع ضحيّتَه غالبُ مَن يتطرّقون إليه، وإنّما بغرَض التحليل العلمي الذي يتوجّه إلى مواطنيه وقارئيه من كلّ مَشرب حتى تنحلّ أمامهم عُقدُ الشرق الأوسط وتنجلي أحاجيها، بعيدًا عن الأهواء والإسقاطات الراهنة. إذ ليس ثمة من تاريخ يثير من الحساسيات الدينيّة والنّزَعات السياسية أكثر ممّا تثيره هذه المنطقة التي تناثلت فيها الديانات السّماوية والعقائد العرفانيّة، كما ارتَطمت بها أحلامُ توسعيّة لحضارات متنافرة.

ويضيف صاحب كتاب «مرآة دمشق» (2017) أنّ الذي حرّكه لكتابة هذا التاريخ الجديد هو الردّ على المقاربات الكاريكاتورية، سواء تلك التي يرسمها القادة السياسيون، أكانوا مُنحدرينَ من البلاد العربيّة أو من الغرب، أو «الجهاديون المتطرّفون» من أجل تبرير أعمالهم والتسويغ لما يأتونه من الفظائع، حيث تكون العودة إلى الماضي مجرّد ذريعة لإضفاء الشرعيّة على ما يعتبرونه حقًا، وقد يذهبون إلى تشويهه وتحريفه. ولذلك أراد فيليو أن تكون قراءته تصحيحًا هادئًا لهذه المسارات واستعادةً رصينة لتلك الأحداث وما بينها من روابط سَببيّة، من أجل تفكيك كلّ مرحلة على ضوء السوابق واللواحق.

المؤلّف جان بيار فيليو أستاذ جامعيّ، بدأ تحصيله العلمي في «معهد العلوم السياسية» بباريس، ثم تخصّص في دراسة تاريخ الشرق الأوسط في «المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية»، حيث درس اللغتَيْن العربية والصينيّة. وقد ألّف العديد من الكتب التي تُرجم بعضها إلى أكثر من خمس عشرة لغةً حول العالم، ومن بينها «ميتران وفلسطين» (2005)، و«حدود الجهاد» (2006)، و«الثورة العربية: عشرة دروس من انتفاضة ديمقراطية» (2011)، و«تاريخ غزّة» (2012)، والروايتان المصوّرتان (بالاشتراك مع الرسّام سيريل بوميه) «ربيع العرب» (2013) و«سيّدة دمشق» (2015)، و«أكتب إليكم من عدن» (2013)، و«العرب: مصيرُهم ومصيرنا» (2015) ومن آخر أعماله «الجزائر: الاستقلال الجديد» (2019). وهو يُدير مُدوّنة رقميّة تحمل عنوان: «ما أقرب الشرق الأوسط»، يحتضنها الموقع الإلكتروني لجريدة «لوموند». كما اشتُهر عمومًا بمواقفه الإيجابيّة من القضية الفلسطينيّة ومن حقّ السوريين في الحرّية.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

استعادة رصينة لأحداث الشرق الأوسط وما بينها من روابط

رغبة في القطع مع التفسيرات الدينية لما تمرّ به المنطقة

جان بيار فيليو في «جامعة كولومبيا» بنيويورك (Getty)

صلةٌ بالعرب

ثمّة، في فرنسا، نوعان من الكتب التي تتناول القضايا العربية، إن كانت شرق أوسطية أو مغاربية. يلجأ النوع الأوّل إلى معجم الصدمة والإثارة والتخويف، جامعاً بين لغة تجارية بسيطة وأفكار يمينية. أما النوع الثاني، فيقوم على أعمال غالباً ما يضعها باحثون وصحافيون تجمعهم بالعالَم العربي صِلةٌ معرفية أو لغوية على الأقل، وهو عالم يمثّل مركز اهتمامهم. وهذا هو حال جان بيار فيليو في «وسط العوالم» وفي كتبه الأخرى.

نظرة أولى

أصدرت «المؤسّسة العربية للدراسات والنشر»، أخيراً، الطبعة الثانية عشرة من كتاب **تاريخ فلسطين الحديث** للمؤرّخ الفلسطيني عبد الوهاب الكيّالي (1939 ـ 1981). يبحث الكتاب في وثائق رسمية سِرّية، بريطانية وصهيونية، ويقدّم إحاطةً تاريخية بفلسطين بين أواخر القرن التاسع عشر حتى نهاية ثورة 1936 - 1939، ضمن ثمانية فصول؛ من بينها: «المقاومة العربية الفلسطينية قبل الحرب العالمية الأولى»، و«الحرب العالمية الأولى المؤامرات الاستعمارية ضدّ الوحدة العربية وعروبة فلسطين»، و«من الامتلاك البريطاني إلى ثورة العشرين».

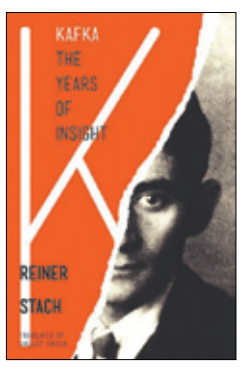

لدى «منشورات جامعة برنستون» الأميركية، صدرت حديثاً الترجمة الإنكليزية لكتاب **كافكا: سنوات البصيرة** للمؤلّف الألماني، المختصّ في سيرة صاحب «المحاكمة»، راينر ستاش. يشكّل العمل، الذي ترجمته شيلّي فريش، الجزء الثالث من سيرة كافكا التي وضعها ستاش بالألمانية وصدرت أجزاؤها تِباعاً في 2002 و2008 و2014. يتناول هذا الجزء الأخير سنواتِ كافكا الأخيرة (1883 ـ 1924)، ولا سيّما مرضه، وتأثّره بأجواء الحرب العالمية الأولى، مع الإضاءة على دور هذه التفاصيل، وعلاقاته الشخصية والعائلية، على كتاباته في تلك الفترة.

عن «دار الرافدين»، صدرت حديثاً رواية **صباح الخير يا يافا** للكاتب المصري أحمد فضيض (1986)، وهي العمل الفائز هذا العام بالمركز الأوّل في فرع الرواية بـ«جائزة الرافدين للكتاب الأوّل». تتناول الرواية محنة عائلة فلسطينية في مدينة يافا المحتلّة، وتستحضر خصوصية المدينة المفتوحة على البحر بشوارعها التي أُعيدت تسميتُها وبمنتدياتِها وأسواقِها ومشاغلِ أهلها وتاريخِها القريب والبعيد. وكانت لجنة تحكيم الجائزة قد أشادت بقدرة هذه الرواية على «خلق عالمها القصصيّ الحيويّ»، وبـ«صفاء لغتها» البعيدة عن التزويق.

عن «دار ألكا»، صدرت حديثاً النسخة العربية من كتاب **التجربة المنبوذة: الصدمة النفسية، السرد والتاريخ** للباحثة الأميركية كاثي كاروث، بترجمة يوسف حمدان. تَعتبر كاروث أنّ معرفة حقيقة الأحداث الصادمة غير ممكن، بسبب تعطيلها الوعي لحدوثها بشكل مباغت وصادم. وبالمحصّلة، فإنّ ما يُكتب عن تاريخها هو تاريخ جزئي. يُعدّ الكتاب، الذي صدر عام 1996، عملاً مؤسِّساً في حقل دراسات الصدمة النفسية الذي لم تكن معالمُه قد ظهرت بشكلٍ واضح قبل صدوره؛ إذ كانت الدراسات قبله تتركّز حولَ علم النفس التحليلي، وعلم الأعصاب.

عن منشورات «ارتحال»، صدر حديثاً كتاب **خير الدين التونسي: بين الحقيقة وظلّها** للباحث عبد الحق الزموري. يعتمد المؤلّف، في كتابه على رسائل المُصلح السياسي الذي عاش في القرن التاسع عشر، وقاد حركة تحديث الدولة في تونس زمن حكم الأسرة الحسينية، ثم في إسطنبول تحت حكم الخليفة عبد الحميد الثاني. يشير الباحث التونسي إلى أنه يبتغي من خلال هذا الكتاب «كسرَ أغلال الصورة المسوّقة لخير الدين التونسي» والذهاب إلى «خير الدين الإنسان»، في عمل يندرج ضمن مشروع تاريخيّ أوسع للمؤلّف يسمّيه «تفكيك العقل الإصلاحي العربي».

بترجمة حنان علي، صدرت حديثاً عن «دار المدى» رواية **سنة العجائب: حكاية وباء** للكاتبة والصحافية الأسترالية جيرالدين بروكس. العملُ مستوحىً مِن الطاعون الذي ضرب قرية إيام في إنكلترا خلال القرن السابع عشر وأودى بحياة ثلث سكّانها الذين فرضوا على أنفسهم حظراً لمنع انتشاره. اعتمدَت الكاتبةُ، في بناء عالَم يجمع بين التاريخ والتخييل، على صُوَر ووثائق جمعتها خلال زيارتها مقاطعةَ داربيشير البريطانية عام 1990؛ مِن بينها رسائل لكاهن البلدة تحدّث فيها عن تدابير الحظر، ونجاة خادمته، وإصابة زوجته بالوباء وموتها.

الخطابة السياسية في العصر الحديث: المؤلّف، الوسيط، الجمهور عنوان كتاب صدر حديثاً عن «دار العين» للباحث المصري عماد عبد اللطيف. يقدّم العمل قراءة غير تقليدية للخطابة السياسية، حيث يركّز على دور مؤلّفي الخطب في تشكيل البلاغة السياسية للدول، ويدرس ظاهرة صعود قوّة الجمهور في التواصل السياسي. يأتي العمل ضمن انشغالات المؤلّف بقضايا الجمهور، ومن أبرز مؤلّفاته: «بلاغة الحرّية»، و«لماذا يصفّق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن»، و«تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكّل المفاهيم والوظائف».

للشاعر المكسيكي فابيو مورابيتو (مولود في الإسكندرية عام 1955 لأبوين إيطاليين)، صدرت حديثاً، لدى منشورات «سوي» بباريس، مختارات مترجمة إلى الفرنسية، تحت عنوان **لكلٍّ سماؤه. أنطولوجيا شعرية، 1984 ـ 2019**. قامت بانتقاء القصائد وترجمتها فابيان برادو، فيما مهّد الناقد والمترجم مارتان رويف للعمل بمقدّمة. يقدّم الشاعر ـ غير المعروف بما يكفي فرنسياً، أو حتى عربياً ـ كتابته بوصفها «نشاطاً سرّياً» يسعى، ببطء، إلى الذهاب نحو جوهر الأشياء التي يريد قولها، قائلاً عن قصيدته إنه تجمع بين التأمّليّ والشخصيّ.